

الباب الأول معالم على الطريق

« لقد كانوا ينظرون إلى الجدل على أنه جزء
منفصل عن المنطق ، وهم بذلك يسيئون فهمه .
أما نحن فنضع الجدل وضعاً يختلف عنهم
أتم الاختلاف . . . »

هيجل - المنطق الكبير - (من المقدمة)

الفصل الأول

المنطق والجدل

١ - موضوع هذا البحث هو المنهج الجدلي عند هيغل ، وهو بالصورة التي سنعرضها يحتاج إلى قليل من الإيضاح ، فقد ذهبنا في هذا البحث إلى أن المنهج الجدلي عند هيغل هو المنطق نفسه ، وليس مجرد « صورة » طبقها هيغل في المنطق ، كما طبقها في جوانب أخرى من فلسفته . وذلك يحتاج إلى أن نسوق كلمة موجزة عن فلسفة هذا الفيلسوف بصفة عامة ، وعن وضع المنطق وموضوعه بصفة خاصة ، ثم نعقب على ذلك بذكر العوامل المختلفة التي شكلت منهجه هذا .

٢ - تنقسم فلسفة هيغل ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) المنطق أو علم الفكرة الشاملة في ذاتها ولذاتها

(ب) فلسفة الطبيعة أو علم الفكرة الشاملة في الآخر .

(ج) فلسفة الروح أو علم الفكرة الشاملة وقد عادت من الآخر إلى نفسها .

وهذه الأقسام الثلاثة لا تدرس إلا موضوعاً واحداً هو الفكرة الشاملة^(١) Begriff في مراحلها المختلفة أو العقل في صورته المتنوعة: العقل محضاً في المنطق، والعقل في حالة تخارج في فلسفة الطبيعة ، والعقل حين يعود إلى نفسه في فلسفة الروح ؛ فهي في القسم الأول تدرس الفكر الخالص أو الفكر في ذاته ولذاته « فالمنطق هو علم الفكرة الخالصة أو هو علم الفكرة الشاملة في وسطها الفكرى الخالص . . . »^(٢) وهي في القسم الثاني تدرس الفكر حين ينتقل إلى الآخر ، أى نقيضه ، أو حين

(١) الفكرة الشاملة مستخدمة هنا كترادف للعقل ؛ وهيغل يطلقها كذلك على الدائرة الأخيرة من المنطق ، وعلى موضوع المنطق كله ؛ وهما استخدامان متقاربان ذلك لأن الدائرة الأخيرة من المنطق تتحد مع مجموع المقولات السابقة كلها فهي تشملها ، بل هي نفسها مجموع هذه المقولات ، ومن هنا يمكن أن تطلق على نسق المقولات كله ، أى على موضوع المنطق الذى هو العقل الخالص أيضاً . قارن فقرة ٨٩ من هذا البحث .

ينخرج من عالمه الخالص إلى عالم آخر غير ذاته من الفكر الخالص إلى المادة الصلبة : « فالفكرة الشاملة في فلسفة الطبيعة ، تضع نفسها في تنارج ، وتسلخ نفسها من وجودها المناسب . . . » (موسوعة ١٨) وهي في القسم الثالث تدرس هذا الفكر نفسه ، حين يعود من الآخر إلى ذاته ، أي إلى حياته الروحية متحرراً من عبودية الطبيعة .

ونحن هنا لا نجد أمامنا إلا موضوعاً واحداً في هذه الأقسام الثلاثة التي يقول عنها هيغل : « إن هذه الجوانب ليست إلا تحديدات لفكرة واحدة ، أو لنسق العقل الذي يفض نفسه في صور مختلفة » . (١) « . . . في كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة لا نجد إلا الفكرة الفلسفية في وسط خاص » (٢) . . . وإذا كان موضوع المنطق هو العقل الخالص ، فإن ذلك يعني أنه عقل مجرد ، أي أنه لا يوجد وجوداً فعلياً في العالم ، فهو لم يظهر بعد ، ثم يبدأ هذا العقل المجرد في التحول إلى ضده أي إلى لاعقل ، وهذا اللاعقل هو التنارج الصلب في الطبيعة . أما في فلسفة الروح فهو يعود إلى نفسه ، ولكنه لا يعود مجرداً أو خالصاً كما كان في الماضي : إنه الآن العقل العيني الحي الذي يوجد وجوداً فعلياً في العالم . ومعنى ذلك أن هذه المرحلة الثالثة تجمع بين المرحلتين السابقتين في مركب واحد : فالإنسان – من ناحية – جزء من الطبيعة فهو حيوان ، وهو وجود مادي خارجي يخضع لسيطرة قوانين الطبيعة ، وهو من ناحية أخرى وجود روحي أو كائن حي عاقل له عالم روحي واسع .

٣ – موضوع فلسفة هيغل إذن هو العقل في صوره المختلفة ، فما المنهج الذي تسير عليه هذه الفلسفة في دراستها لهذا الموضوع . . ؟ وما العلم الذي يختص بعرض هذا المنهج . . ؟

لا بد أن نسلم بادئ ذي بدء بأن المحاولات التي قام بها بعض الفلاسفة لتطبيق مناهج العلوم الأخرى على الفلسفة هي محاولات فاشلة ، لأن المنهج الفلسفي لا بد أن ينبع من صميم الفلسفة ذاتها . . . « فالفلسفة إذا أريد لها أن تكون معرفة منظّمة ،

ينبغي ألا تستعير منهجها من علم آخر ، أو أن تقنع بمزاعم الحدس ، أو أن تستخدم الاستدلالات التي تعتمد أساساً على تفكير خارجي . . . (١) . .

ومن هنا فقد عرض هيجل المنهجى الرياضى والعلوم وانتهى إلى رفضهما معاً . يقول فى المنطق الكبير : « لقد اتخذت العلوم التجريبية لنفسها منهجاً خاصاً فى دراسة موضوعاتها ، وكذلك كان للرياضة البحتة منهجها الذى يتناسب مع موضوعاتها المجردة . . . ولم تكن الفلسفة - حتى ذلك الوقت - قد اكتشفت منهجها الخاص ، ولهذا فقد كانت تنظر بعين الحسد إلى العرض المنظم للرياضة فتستعيره أحياناً ، أو تلتمس العون - أحياناً أخرى - من منهج العلوم التجريبية أو تلجأ أحياناً ثالثة إلى رفض المنهج بصفة عامة . » (٢) .

ولقد حاول الفلاسفة التجريبيون تطبيق منهج العلوم التجريبية - كما فعل لوك وغيره - فى مجال الفلسفة . « كما أنك تجد من الفلاسفة من سمح لنفسه بالانزلاق إلى تطبيق المنهج الرياضى كما فعل اسبينوزا وفولف وغيرهما . . . » (٣) . وتلك كلها محاولات فاشلة لأن هذين المنهجين لا يصلحان لدراسة الفلسفة ؛ فالمنهج التجريبي (٤) « يتضمن نقيصتين : الأولى هى أن المبدأ الكلى الذى يتضمنه هذا المنهج لا يرتبط بالجزئيات ، فكل منهما خارجى وعرضى بالنسبة للآخر (لأن هدفه إدراج الجزئيات تحت قانون كلى مجرد يناسبها دون الاهتمام بمدى وجود الارتباط الضرورى بين القانون وجزئياته) . وتلك هى الحال نفسها بالنسبة للوقائع الجزئية التى يجمعها معاً فى وحدة واحدة ، فكل منها خارجى وعرضى بالنسبة للآخر . والنقيصة الثانية هى أن البدايات التى يبدأ منها هذا المنهج ليست إلا معطيات ومسلّمات لا هى مفسرة ولا هى مستنبطة ، وفى كل من هاتين

Greater Logic Vol. IP. 30 & Phenom. Preface & Enc. [1] (١)

Hegel : Greater Logic Vol. I p. 64 — Trad. Fran. Tom. I p. 39. (٢)

Hegel : Greater Logic Vol. I p. 64 — Trad. Fran. Tom. I. p. 39. (٣)

(٤) يسميه كذلك بالمنهج التحليل لأنه يعتمد على تحليل الواقع العيني ورده إلى كليات مجردة هى القوانين . موسوعة (٣٨) . وهذا المنهج - ومعنه المنهج الرياضى الذى يسميه بالمنهج التالىنى - سوف يظهران فى تطور سير الفكر فى المنطق « فجميع صور الفكر المتناهى لا بد أن تظهر فى سلسلة التطور المنطقى إلا أنها ستظهر فى نظام تحكّمه قوانين ضرورية . » موسوعة (٢٤) .

التقيصتين تنعدم الضرورة . . »^(١) فالمنهج التجريبي لا يصلح منهجاً للفلسفة لأنه يفتقر إلى الضرورة التي ينشدها العقل^(٢) .

أما منهج الرياضيات « أو المنهج التأليفي فهو يسير عكس المنهج التحليلي . فإذا كان الأخير يبدأ من الجزئيات ويسير منها صعوداً إلى الكليات ، فإن المنهج التأليفي يبدأ من الكليات (وهي التعريفات والمسلمات) ثم يسير منها سفلاً إلى الجزئيات وهي النظريات في هذه الحالة . . »^(٣) وهو منهج لا يصلح كذلك للفلسفة ، « فالهندسة - مثلاً - تبحث في موضوع مجرد كالمكان ولذا يسهل عليها تعريفه ، إلا أن الموضوعات التي تعرفها الهندسة تفتقر هي الأخرى إلى الضرورة شأنها في ذلك شأن موضوعات العلم التجريبي ، إذ يتوقع العلماء منا أن نسلم لهم بوجود المكان ، وكذلك النبات والحيوان . . الخ . فليس من شأن الهندسة أو علم النبات أو غيرها البرهنة على ضرورة وجود الموضوعات التي تبحثها . وذلك يجعل المنهج التأليفي لا يناسب الفلسفة شأنه في ذلك شأن المنهج التحليلي سواء بسواء ، لأن هدف الفلسفة هو قبل كل شيء إظهار الضرورة في موضوعاتها . ولذلك نستطيع أن نقول : إن هذين المنهجين مع أنهما لازمان في ميادين خاصة وقد حققا نجاحاً في مجاليهما ، إلا أنهما لا يصلحان للمعرفة الفلسفية ، لأنهما يبدأان من فروض ثم يسيران منها مترسمين خطى الفهم ، خاضعين لقانون الهوية الصوري^(٤) الذي يقدم لنا هوية خاوية مجردة تستبعد الاختلاف وتعانده . « مع أن الفكر الفلسفي ليس فكراً مجرداً يعرض التناقض في عداء صارم ، وإنما هو فكر عيني يحل التناقض ويتتبع التصورات وهي تسير من خلال الأضداد »^(٥) .

أما المنهج الفلسفي فهو منهج تحليلي وتأليفي في آن واحد . وليس معنى ذلك أنه مجرد جمع لهذين المنهجين المتناهيين ، وإنما هو يمزج بينهما ويدمجهما في ذاته بحيث ترى التحليل والتأليف في كل خطوة من خطوات سيره^(٦) . وهذا المنهج الفلسفي هو المنهج الجدلي الذي يسمى كذلك بالمنهج المطلق . فليس فيه أي

Ibid [٢] (٢)

Hegel Enc. [9] (١)

Ibid [229] Z. (٤)

Ibid [228] Z. (٣)

Otto Pfiederer: "The development of German Theology Since Kant" p. 69. (٥)

Hegel : Enc. [238] Z. (٦)

افتراض من بدايته إلى نهايته ، فقولة الوجود ليست مجرد بداية ولكنها تقوم على النهاية ، أى على المقولة الأخيرة وهي مقولة الفكرة المطلقة . فالمنهج الجدلى هو منهج تحليلي وتأليفي في جميع خطواته وهو نفسه عبارة عن التأليف أو المركب من المنهجين السابقين .

٤ - ولكن ألا يمكن أن يعترض معترض على ذلك بنفس الحجة التي رفض هيجل على أساسها لأخذ بمنهجي العلوم والرياضة . . ؟ ألا يجوز أن نعترض على المنهج الفلسفي الذي يقدمه لنا هيجل بهذه الصورة فنقول إن حديثه عنه ليس إلا واقعة بلا تفسير أو هو مجرد فرض يفتقر إلى البرهنة . . ؟ ويجيب هيجل على ذلك بقوله : « إن كل ما نقوله هنا إنما هو على سبيل التوقع فحسب ، ذلك لأن كل شيء لا بد من البرهنة عليه ، ولا بد أن يظهر في مكانه المناسب ^(١) . » وبالتالي فلا بد من البرهنة على أن المنهج الجدلى هو المنهج الوحيد الضروري للفلسفة ؛ ولا بد كذلك من البرهنة على أنه يجمع بين المنهجين التحليلي والتأليفي ؛ ولهذا فسوف نرى فيما بعد أن المنهج الجدلى نفسه خطوة من خطوات المنطق ، فهو سوف يستنبط في الدائرة الثالثة من المنطق ، وهذا الاستنباط يعنى أنه ليس مجرد فرض وإنما هو ضرورة يملها الفكر نفسه . « فالمنطق لا يستطيع أن يسلم بصور الفكر أو قواعده وقوانينه لأنها تكون جزءاً من نسيجه ، ومن ثم كان لا بد من البرهنة عليها داخل إطار العلم نفسه ؛ وليس منهج الفلسفة هو وحده الذي ينتمى إلى مضمون المنطق بل كذلك مفهوم الفلسفة ذاتها . . » ^(٢) .

٥ - بقى السؤال الثاني وهو : ما العلم الذي يختص بعرض هذا المنهج . . ؟ يجب هيجل على ذلك بأن هذا العلم هو المنطق ؛ غير أن ذلك يتطلب منا أن نعرض في إيجاز للزاوية الجديدة التي ينظر منها هيجل إلى هذا العلم ، وهي نظرة تخالف المفهوم الشائع للمنطق ^(٣) .

Hegel : Enc. [83] Z.

(١)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 53 — Trad. Fran. Tom. I. p. 27.

(٢)

(٣) يجب ألا يغيب عن ذهننا أن المنطق عند هيجل هو نفسه الميتافيزيقا « فالمنطق والميتافيزيقا

شيء واحد » موسوعة (٢٤) .

ويمكن أن نقول بصفة عامة: إن مذهب هيغل يدور حول اعتقاده أنه اكتشف طبيعة الفكر ، فكل المناطقة منذ أرسطو حتى الآن قد أخطأوا - في رأيه - فهم طبيعة الفكر مما انعكس أثره على فهمهم للمنطق^(١) . فذهبوا إلى أنه لا يدرس إلا الأشكال والصور وحدها بينما يستمد محتواها من غيره^(٢) . إلا أنه لمن العبث أن نقول: إن المنطق خلو من كل مضمون وأنه يزودنا بقواعد الفكر فحسب دون أن يذهب إلى دراسة ماهية الفكر نفسه ، أو أن يكون قادراً على البحث في طبيعة هذا الفكر ذاته^(٣) . ومعنى ذلك أن هيغل ينظر إلى المنطق نظرة جديدة تخالف النظرة الأرسطية القديمة، فهو عنده لا يدرس صور الفكر وقواعده فحسب وإنما يدرس مادته أيضاً ، ومادة المنطق - في رأيه - هي الفكر ، وبالتالي فالمنطق هو دراسة لطبيعة الفكر الخالص أو هر « دراسة للحياة الباطنية للعقل »^(٤) . « فعلم المنطق ينبغي أن ينظر إليه على أنه نسق العقل الخالص ، أو ملكوت الفكر الخالص ، وهذا الملكوت هو الحقيقة كما هي - بلا قناع - في ذاتها ولذاتها ؛ ويمكن للمرء أن يعبر عن ذلك بقوله: إن مضمون المنطق يعرض لنا الله في ماهيته الأزلية^(٥) ، قبل أن يخلق الطبيعة والروح المتناهي . . . »^(٦) .

٦ - المنطق إذن بحث في طبيعة العقل أو دراسة للفكر الخالص ، فهو لا يعنى بالأشكال والصور وحدها ، وإنما يدرس هذه الأشكال مع مضمونها

W.T. Jones : "A His. of Phil." p. 872.

(١)

Hegel : Enc. [24]

(٢)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 54 — Trad. Fran. Tom. I. p. 28.

(٣)

J. Hyppolite : Principes de la Philosophie du Droit p. 6-7.

(٤)

(Introduction).

(٥) يلاحظ « كرونر » أنه إذا كان من الممكن أن نصف الفكرة المطلقة بأوصاف من العقيدة المسيحية فنقول: إنها الله قبل الخلق كما فعل هيغل نفسه في مقدمة المنطق الكبير ، فيجب ألا يغيب عن ذهننا أن هناك فارقاً واضحاً بين فلسفة هيغل وبين الديانة المسيحية . فهيجل لا يرى أن الله قبل الخلق كان الآب السماوي يسوع والإنسان وإنما هو الكلمة ولا شيء غير الكلمة . . . الكلمة التي تقض نفسها في ملكة المثل الأنطولوجية ، أو الصور والنماذج الخالدة التي بها كل شيء كان ، وبدونها لم يكن شيء مما كان . . . : وهذه الصور أو النماذج هي المقولات . . . » « تطور هيغل الفلاسف » ص ٦٠ - ٦١ .

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 60 — Trad. Fran. Tom. I. p. 35.

(٦)

ومضمونها هو الفكر فهو « دراسة للفكر من أجل الفكر وحده . . » (١) أو دراسة للنسيج الذى يتألف منه الفكر بغية الكشف عن طبيعته وماهيته ، فما الذى انتهى إليه هيكل من هذه الدراسة . . ؟ انتهى إلى أن الفكر جلد الطابع ، وأنه يسير على إيقاع ثلاثى من ايجاب إلى سلب إلى تأليف بينهما ، تلك هى ماهية الفكر وطبيعة الروح : « فن طبيعة الروح أن تنقسم على نفسها ، ولكنها تعود بنشاطها الخاص فتشق لنفسها طريقاً جديداً لكى تتوافق مرة أخرى ، ومن ثم يكون الاتفاق النهائى اتفاقاً روحياً ، أعنى أن مبدأ العودة إنما يكون فى الفكر — وفى الفكر وحده — فاليد التى أحدثت الجرح هى نفسها التى تداويه . . » (٢) وإذا أردنا أن نعرف كيف تنقسم الروح على نفسها ، أو كيف يكون الفكر جديداً بطبعه فإن علينا الرجوع إلى المنطق فهذه الموضوعات نفسها دروس رئيسية هناك . وذلك هو المنهج الجلدلى الذى يعبر عن ماهية الفكر وطبيعة الروح .

ومن هنا فلا بد أن نلاحظ فى عناية أن المنهج الجلدلى عند هيكل ليس صورة خالية أو إطاراً فارغاً يمكن أن ينطبق على موضوعات خارجية ، لأنه لو صح ذلك لكان نشاطاً ذاتياً لنا : « ولكن الجلدل ليس نشاطاً للتفكير الذاتى يمكن أن ينطبق على موضوع ما من الخارج بل هو نفسه روح الموضوع الذى يجعله ينتج عضوياً فروعه وثماره » (٣) . . « إن المنهج لا ينفصل عن موضوعه إنه المضمون فى ذاته ، وما يكمن فى هذا المضمون من جلدل هو الذى يحركه ؛ وواضح أنه لا يمكن أن ينظر إلى أى عرض أو شرح على أنه عرض وشرح علمى (٤) ، ما لم يترسم خطى هذا المنهج وما لم يتفق مع إيقاعه » (٥) . . . فالموضوع أيّاً كان نوعه هو الذى يحدد المنهج الذى يسير عليه : « ولقد ألفت الناس أن ينظروا إلى المنهج التحليلى (التجريبي) والمنهج التأليفي (الرياضي) كما لو كان اختيار أحدهما دون الآخر أمراً يتوقف

Hegel : Greater Logic vol.: I. p. 42.

(١)

Hegel : Enc. [24] Z.

(٢)

Hegel : The Philosophy of Right, p. 34 — Tran. by T.M. Knox.

(٣)

(٤) الشرح العلمى عند هيكل هو الشرح الفلسفى ، فهو يستخدم كلمة العلم فى كثير من الأحيان

مرادفة للفلسفة .

Hegel : Greater Logic vol. I. p. 65 — Trad. Fran. Tom. I. p. 41.

(٥)

تماماً على رغباتهم الخاصة ، غير أن ذلك وهم خاطئ . إن اختيار أحدهما دون الآخر كوسيلة للبحث ، يعتمد أساساً على موضوعات البحث ، فهى وحدها التى تحدد المنهج الذى تسير عليه . . « (١) » . وإذا كان من الممكن فى جميع العلوم الأخرى أن نفرق بين موضوع البحث والمنهج الذى يسير عليه ، فإن ذلك مستحيل فى المنطق ، لأن المنهج جزء من نسيج المنطق نفسه .

٧- وسوف نستعرض الآن مقتطفات من كتب هيغل المختلفة تبين لنا فى وضوح وجلاء كيف أنه ينظر إلى المنطق على أنه العلم الذى يعرض المنهج الجدل : يقول فى « ظاهريات الروح » : « يبدو أنه من الضرورى أن نبدأ بذكر بعض النقاط الأساسية التى تتعلق « بالمنهج » الذى سنسير عليه ، أو الطريقة التى يسير على هديها هذا العلم (يقصد ظاهريات الروح) . ومهما يكن من شئ « فإن طبيعة هذا المنهج يمكن أن تلمس فيما سبق أن ذكرناه . أما العرض المنظم لهذا المنهج فتلك هى المهمة الخاصة التى يضطلع بها المنطق ، بل هى المنطق نفسه ، لأن المنهج ليس شيئاً آخر غير النسيج الذى يتألف منه الكل (أى كل العلوم الفلسفية وهو الفكر) فى صورته الجوهرية الخالصة « (٢) » . ومن هذه العبارة يتضح لنا ما يقصده هيغل بالمنهج الجدلى فهو « المنطق » أو هو النسيج الذى يتألف منه الفكر الخالص .

ويقول فى فلسفة الحق : « المنهج هو الفكرة الشاملة التى تنمو بفضل نشاطها الخالص ولقد عرضته فى المنطق « (٣) » . والمبدأ المحرك لهذا النمو هو الجدل فالمنهج هو الفكر الخالص الذى يتحرك بفضل ما يكمن فى جوفه من جدل « ذلك لأن ما يدفع الفكرة الشاملة إلى السير قدما هو السلب الذى سبق أن ذكرناه وهو السلب الذى تحمله الفكرة الشاملة فى جوفها ، وذلك ما يكون الحركة الجدلية الأصيلة . ولقد كانوا ينظرون إلى الجدل على أنه جزء منفصل عن المنطق ، وهم بذلك يسيئون فهمه ، أما نحن فنضع الجدل وضماً يختلف عنهم أتم الاختلاف « (٤) »

Hegel : Enc. [237] Z.

(١)

Hegel : "The Phenom." p. 106 — Trad. Fran. Tom. I. p. 41.

(٢)

Hegel : "The Philosophy of Right." p. 34 Tran. by Knox.

(٣)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 66 — Trad. Fran. Tom. I. p. 49.

(٤)

ويقول في موسوعة العلوم الفلسفية : « إن صور الفكر لا بد أن تدرس في طبيعتها الجوهرية وتطورها الكامل ، إنها في آن معاً : موضوع البحث وفعل البحث ، ومن ثم فهي تفحص نفسها بنفسها ، وبنشاطها الخاص ينبغي عليها أن تعين حدودها وأن تشير إلى نقائصها وذلك هو نشاط الفكر الذى سأسميه من الآن فصاعداً باسم : المنهج الجدلى ، وعلينا أن نلاحظ أنه بدلا من أن ينظر إلى المقولات من خارج ، فإنه سيكون نشاطاً باطنياً أو محايثاً لفعلها الخاص ، أو هو نشاط المقولات ذاتها »^(١) فهو هنا يطلق المنهج الجدلى على عملية استنباط المقولات التى تبدأ من مقولة الوجود وتنتهى بمقولة الفكرة المطلقة ، أى على المنطق نفسه ، ويرى أن هذا الاستنباط لا يقوم به الباحث ولكن المقولات تستنبط نفسها بنفسها . وهو يقول أيضاً : « إن خير منهج يتلاءم مع الحقيقة هو منهج المعرفة الذى يسير بصور الفكر الخالص (المقولات) ، وهنا يكون موقف الإنسان موقف حرية كاملة »^(٢) . « وعرض هذا المنهج الذى يلائم الفلسفة عمل من اختصاص المنطق ذاته . ما دام المنهج هو الوعى بالصورة مأخوذة فى إطار الحركة الذاتية لمضمّن المنطق »^(٣) . ويقول كذلك « إن نمو الفكرة الشاملة هو ما أسميه بالمنهج . . »^(٤) . « والواقع أن الفكرة الشاملة هى من ناحية — المنهج الجدلى الذى يتناول بالدرس حدود الفهم ، وما يضعه من اختلافات بين هذه الحدود ، ويقوم برد التباين إلى الوحدة . وهذه العملية لا تحدث فى الزمان ، ولا تحدث بأية طريقة أخرى »^(٥) . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الفكرة الشاملة وإن كانت تطلق على القسم الأخير من المنطق إلا أنها تطلق كذلك على المنطق كله ؛ لأنها الخلاصة التى وصل إليها المنطق ، فهى لهذا تحمل فى جوفها جميع المقولات السابقة ، فكأن هيجل فى العبارات السابقة يطلق المنهج الجدلى على تلك الرحلة التى يقطعها المنطق منذ أن يبدأ بالوجود الخالص إلى أن يصل إلى الفكرة المطلقة ، وهو يلخص ذلك فى قوله : « المراحل التى تسير فيها الفكرة الشاملة هى ما أسميه بالمنهج . . »^(٦) . وما يأخذه هيجل على المنهج

Hegel : Enc. [24] Z. (٢)

Hegel : Enc. [41] Z. (١)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 64 — Trad Fran. Tom. I. p. 40. (٣)

Hegel : Ibid. [214] (٥)

Hegel : Enc. [237] Z. (٤)

Ibid. [237] (٦)

التجريبي هو « أنه لا يعرف الفكرة الشاملة في ذاتها ولذاتها وإنما تراه يعرفها بألفاظ يفترضها ثم يستخدمها كقياس للحقيقة . وليس ثمة حاجة لتطبيق هذا المقياس ، إن كل ما علينا عمله هو : أن ندع صور الفكر تنبع من حياتها العضوية الخالصة »^(١) .

٨- المنطق إذن هو المنهج الجدلي ، أو هو العرض المنظم لهذا المنهج . ولذا نجد أنه يشكل دائرة مغلقة لأنه يعرض المنهج من بدايته إلى نهايته «فهمة المنطق كما تصورها هيكل هي تتبع «الديالكتيك» حتى نهايته . . .»^(٢) . وهذا يفسر لنا السبب في أننا حين نصل إلى نهاية المنطق لا نجد أمامنا متناقضات ، فقد اكتمل عرض المنهج حين انتهينا من تحليل الفكر الخالص وأظهرنا خصائصه ، فليس ثمة تقسيمات فرعية بعد ذلك لأن الحركة الجدلية التي تعبر عن طبيعة الفكر الخالص قد وصلت الآن إلى نهايتها وطالما أنه لم يعد هناك انتقالات ولا مقولات فرعية فإنه لم يبق أمامنا سوى الفكرة المطلقة في نقائها الخالص ، وهي لهذا الصورة الخالصة للفكر : « وجميع المراحل التي مرت بها هذه الصورة وخلفناها وراءنا هي ما أسميه بالمنهج . . . »^(٣) . ولهذا فإننا نجد أنفسنا من جديد - في نهاية المنطق - مع البداية التي بدأنا منها : مع الوجود ولكنه الآن ليس وجوداً مجرداً خالصاً ، ولكنه وجود مادي هو : الطبيعة .

٩- ونحن نجد من ناحية أخرى أن جميع المبادئ والأسس والقواعد التي تحدد سير المنهج الجدلي هي نفسها دروس رئيسية في المنطق ، فإذا قلنا مثلاً إن المنهج الجدلي يستند إلى مبدأ يقول : « إن كل تعين ساب ، وإن كل سلب تعين » أو أن الإيجاب والسلب يتحول كل منهما إلى الآخر ، فإننا نجد أن المنطق هو الذي يبرهن على صحة هذه المبادئ - وقل مثل ذلك في الهوية التي لا تنفصل عن الاختلاف ، وفي تناقض الفكر ، وفي النفي ، والجمع بين الموجب والسالب ، وتحول الكم إلى الكيف : وغيرها من الأسس التي يقوم عليها المنهج الجدلي ، فهي كلها مقولات يكشف عنها سير المنطق ؛ وإذا كان « أنجلز » يخصص المنهج

Ibid. [24]

(١)

(٢) و . س . وولش « مدخل لفلسفة التاريخ » ص ١٨٨ ترجمة الأستاذ أحمد حدى محمود .

Hegel : op. cit. [237]

(٣)

الجدلى عند الماركسيين فى ثلاثة قوانين هى :

- ١ - قانون تحول الكم إلى الكيف والعكس .
- ٢ - قانون تداخل الأضداد .
- ٣ - قانون نفي النفي (١) .

فإنه يقول فى تعليقه عليها : « هذه القوانين الثلاثة طواها هيجل كلها بطريقته المثالية على أنها قوانين للفكر ، فقد عرض القانون الأول فى القسم الأول من المنطق وهو دائرة الوجود ، وشرح القانون الثانى فى القسم الثانى من المنطق - وهو أهم أقسام المنطق كلها - وأعنى به دائرة الماهية ، أما القانون الثالث والأخير فقد اعتبره القانون الأساسى فى بناء النسق كله » .

وأنجلز فى هذا النص يرد الجدل عند الماركسيين إلى منطق هيجل ، ولا يردده إلى أى جزء آخر من أجزاء فلسفته ، ذلك لأن المنهج الجدلى منهج منطقي قلباً وقالباً ولهذا كان عرض المنطق الهيجلي إنما يعنى فى الوقت ذاته عرض المنهج الجدلى عند هذا الفيلسوف ، وكانت دراسة هذا المنطق بالتالى ضرورية لفهم الماركسية نفسها .

ولقد عبر « لينين » عن هذه الحقيقة أصدق تعبير فى قوله إنه : « يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم « رأس المال » لكارل ماركس - لا سيما الفصل الأول منه - ما لم ندرس منطق هيجل دراسة عميقة ونفهمه بأكمه . ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمان ، ولم يفهم ماركس واحد من الماركسيين !! » (٢)

بل إننا نجد ماركس نفسه فى كتابه « رأس المال » حين يشير إلى قانون من قوانين الجدل يقول : « هنا كما هى الحال فى العلوم الطبيعية يثبت صحة القانون الذى اكتشفه هيجل فى كتابه « المنطق » ، وهو القانون الذى يبين أن التغيرات البسيطة فى الكم حين تصل إلى درجة معينة تؤدى إلى اختلاف فى الكيف » (٣) . وهو هنا يشير إلى مقولة الكمية النوعية التى يصل إليها الجدل فى نهاية القسم الأول

Engels : Dial. of Nature p. 83.

(١)

Lenin : Collected Works vol. 38 p. 180.

(٢)

K. Marx : "Capital" Vol. I. p. 309. (Moscow 1965).

(٣)

من المنطق ؛ ومعنى ذلك أن الماركسيين قد فهموا المنهج الجدلى كما فهمه هيجل على أنه المنطق نفسه .

أضف إلى ذلك أننا إذا قلنا إن المنهج الجدلى منهج يسير على إيقاع ثلاثى ، وأنه سلسلة طويلة من المثلثات التى تسير من تلقاء ذاتها سيراً ضرورياً ، وأن الحد الأول فى أى مثلث يكون دائماً مباشراً ، والحد الثانى متوسطاً ، والحد الثالث هو جمع وتأليف بينهما ، أو هو المباشر الذى يكمن التوسط فى جوفه — فإن هذه كلها خطوات رئيسية فى المنطق .

خذ — مثلاً المثلث الأول فى المنطق : الوجود — العدم — الصيرورة . تجد أنه هو نفسه الصورة العقلية الخالصة لهذه الحدود — فالوجود الخالص (أو الإيجاب الخالص) هو المباشرة الخالصة ، والعدم الخالص (أو السلب) هو التوسط الخالص ، والصيرورة الخالصة هى المباشرة التى يكمن التوسط فى جوفها .

وأقسام المنطق نفسها تمثل هذه الخصائص :

- (أ) فدائرة الوجود هى دائرة المباشرة : فالموجود هو دائماً شىء مباشر .
 (ب) ودائرة الماهية هى دائرة التوسط : فأنت لا تستطيع أن تصل إلى الماهية إلا من خلال الآخر أى : من خلال الوجود .
 (جـ) ودائرة الفكرة الشاملة هى المركب منهما أى المباشرة التى يكمن فى جوفها التوسط ، فالفكر هو المباشر الذى يتضمن التوسط فى داخله .

وقل مثل ذلك فى الأقسام الفرعية لهذه الدوائر الثلاث فدائرة الوجود تنقسم إلى : الكيف — الكم — القدر . والكيف مباشر إذ يستطيع المرء أن يعرف أن هذا الشىء هو كذا وكذا بطريقة مباشرة ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف عدده أو حجمه قبل أن يعرف كيفه ، ومن ثم فالكيف مباشر والكم متوسط أما القدر فهو المركب منهما . وهكذا فى تقسيم الماهية والفكرة الشاملة .

١٠ — معنى ذلك كله أن جميع المبادئ الرئيسية فى المنهج الجدلى هى أجزاء من نسيج المنطق نفسه ؛ غير أننا قلنا منذ قليل إن المنطق هو المنهج الجدلى : فكيف يمكن أن تكون المبادئ الرئيسية فى المنهج الجدلى هى أجزاء من المنهج

تفسير ذلك أن المنهج الجدلي ينبغي أن يثبت نفسه بنفسه ، وأن يبرهن هو نفسه على جميع مبادئه وأسس وقوانينه داخل إطاره الخاص ، وذلك هو المعنى الصحيح للبرهنة في الفلسفة : « ذلك لأن البرهنة في الفلسفة إنما تعنى أن نبين كيف أن الموضوع ذاته يجعل نفسه على ما هو عليه » (١) ولذا فيجب ألا نجدعنا تقسيم المنطق إلى أقسام مختلفة . . « إذ أنه طبقاً لهذا المنهج فإن الأقسام والعناوين والكتب والفصول والأبواب الموجودة في المنطق ، وكذلك الشروح ليس لها قيمة ذاتية فهي لا تدخل ضمن نطاق العلم نفسه ، ولكنها جمعت ونظمت بواسطة تفكير خارجي » (٢) .

وقد يعترض معترض فيقول إن الخصائص التي ذكرتها هي سمات عامة تطبع بطابعها فلسفة هيكل كلها ، فإذا كان وجود هذه الخصائص في المنطق قد جعلك تذهب إلى أن المنطق هو المنهج الجدلي ، فإننا نستطيع أن نقول : إن فلسفة الطبيعة تنقسم هي الأخرى بهذه السمات فهي تنقسم ثلاثة أقسام هي :

(أ) عالم الآليات .

(ب) عالم الفيزياء .

(ج) العالم العضوي .

وهي أيضاً تمثل المباشرة : والتوسط ، والتأليف بينهما : وقل مثل ذلك في فلسفة الروح التي تنقسم إلى : الروح الذاتية (المباشر) . والروح الموضوعية (التوسط) والروح المطلقة (المركب) . بل قل نفس الشيء في جميع الأقسام الفرعية للمذهب . فلم لا نقول بنفس الطريقة إن فلسفة الطبيعة هي المنهج الجدلي ، أو أن فلسفة الروح هي المنهج الجدلي : . . ؟ طالما أنهما ينسبان بنفس الخصائص السابقة ويكمن في جوهرهما جميع المبادئ والقواعد التي تقول إن المنطق يشملها...؟ .
والجواب على ذلك هو كما يلي :

أما أن هذه الخصائص تطبع بطابعها فلسفة الطبيعة وفلسفة الروح ، فذلك أمر طبيعي طالما أن هذه الخصائص تعبر عن طبيعة العقل ، وطالما أن فلسفة

Hegel : Enc. [83] Z.

(١)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 65 — Trad. Fran. Tom. I. p. 41.

(٢)

الطبيعة وفلسفة الروح تدرسان صورتين من صور العقل هما : العقل في التخارج ، والعقل حين يعود إلى نفسه . بل إننا أصبحنا الآن بعد هذا الذي تقدم في وضع يمكننا من أن نقول : إن العلاقة بين أقسام الفلسفة الهيجلية الثلاثة لا بد أن تكون علاقة جدلية ما دام الجدل هو طبيعة العقل ، وما دامت كلها تدرس العقل في وسط خاص ، ومن هنا فإن الفلاسفة الهيجلية ككل تشكل مثلثاً كبيراً هو : المنطق — فلسفة الطبيعة — فلسفة الروح ، والمنطق هو العقل الخالص ، والطبيعة هي النقيض ، يجمعهما مركب واحد هو فلسفة الروح التي تدرس العقل كما يظهر في العالم ويمارس نشاطه في المنظمات والمؤسسات الاجتماعية المختلفة وما ينتج من فن ودين وفلسفة ، أو باختصار الحياة الروحية للإنسان كما تتجلى في تاريخ العالم .

وأما القول بأن هاتين الفلسفتين هما المنهج الجدلي فهو قياس خاطئ ، ذلك لأنهما يطبقان المنهج الجدلي على موضوعات عينية هي المادة الصلبة في الطبيعة ، والحياة الروحية في فلسفة الروح . يقول هيجل : «لقد قدمت في كتابي « ظاهريات الروح » مثلاً لهذا المنهج حين طبقته على موضوع عيني هو : الوعي . . . »^(١) . ويقول في تعليقه على هذه العبارة « كما طبقت هذا المنهج بعد ذلك على موضوعات عينية شتى » . . . فهو في فلسفة الطبيعة وفلسفة الروح يطبق المنهج الجدلي أو يطبق المنطق على موضوعات عينية ، أما في المنطق فهو يشرح المنهج ولا يطبقه . ولهذا السبب فإننا لا نقول إن الوجود الخالص يمثل المباشرة ، وإكنا نقول : إن الوجود الخالص هو المباشرة الخالصة ، والعدم الخالص هو التوسط الخالص . . . وهكذا .

١١ — وعلى ذلك فهذه الفلسفات ليست إلا تطبيقات للمنطق ، أو هي المنهج الجدلي مطبقاً على موضوعات عينية . يقول هيجل : « إذا نظرنا إلى المنطق على أنه نسق الفكر الخالص فسنجد أن العلوم الفلسفية الأخرى كالفلسفة الطبيعية وفلسفة الروح — هي تطبيقات للمنطق ، ذلك لأن المنطق هو الروح التي تشيع الحياة في هذه العلوم وستكون المشكلة التي ندرسها في هذه الحالة هي : التعرف على الصور المنطقية كما تتشكل في الطبيعة والروح . وهي أشكال ليست إلا نمطاً جزئياً من التعبير عن صور الفكر الخالص . . . »^(٢)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 64 — Trad Fran. Tom. I. p. 40.

(١)

Hegel : Enc. [24]

(٢)

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هيجل ينشد في فلسفة الطبيعة وفلسفة الروح استنباط أفكار هذين العلمين ؛ فإذا كان يبدو في فلسفة الطبيعة أنه يستنبط الحيوان من النبات فإن ما يقوم به فعلا هو استنباط فكرة الحيوان من فكرة النبات ، وإذا كان يبدو في فلسفة الروح أنه يستنبط المجتمع المدني من الأسرة والدولة من المجتمع المدني ، فإن ما يقوم به. في الواقع هو استنباط أفكار هذه الموضوعات ، فهو يدرس الأفكار وحدها في أي جانب من جوانب فلسفته ، ولم يحاول قط أن يفعل شيئا سوى استنباط فكرة من فكرة أخرى (١) .

وإذا كان هيجل يحاول في فلسفة الطبيعة وفي فلسفة الروح أن يستنبط فكرة من فكرة أخرى فهو يهدف بذلك إلى البرهنة على أن « المراتب اللاحقة تحوى في جوفها المراتب السابقة صراحة وأن الأولى تحوى الثانية ضمناً ، فالعملية هنا هي نفسها العملية التي حدثت في المنطق (٢) » . مطبقة على موضوعات أخرى .

وهكذا نجد أن المنطق في هذه الفلسفات هو حجر الأساس لأنه المنهج الذى يناسب الفلسفة بصفة عامة ، وهو الصورة التي يحاول هيجل تطبيقها في جميع مجالات المعرفة البشرية ولذا قيل — بحق — إن « المنطق هو إنجيل الهيجلية . . . » ويقول مكتجارت : « المنهج الجدلى عند هيجل هو حجر الزاوية في بناء المذهب ، فلو أننا سلمنا بما قاله هيجل في المنطق ثم رفضنا بعد ذلك كل ما كتبه ، فسوف يكون لدينا مذهب فلسفى ، صحيح أنه لم يكتمل تماماً ولكنه مع ذلك يصل بنا إلى نتائج غاية في الأهمية . ولو أننا من ناحية أخرى رفضنا المنهج الجدلى الذى يوصلنا إلى الفكرة المطلقة فسوف ينهار المذهب من أساسه ، ذلك لأن هيجل يعتمد في بقية مذهبه على ما وصل إليه في المنطق . . . » (٣) . فالمنطق هو الروح التي تشيع الحياة في جميع العلوم ، ومقولاته هي السلالة الروحية ، فهي قلب الأشياء ومركزها (٤) .

W.T. Stace : "The Philosophy of Hegel." [410]

(١)

Ibid : [434].

(٢)

J.M. Mctaggart : "A Commentary on Hegel's Logic" p. 1-2.

(٣)

Hegel : Enc. [24] Z.

(٤)

١٢ - فبقية العلوم تأخذ بنفس المنهج الذى شرحة المنطق وحدد معالمه . وهذا واضح فى كل ما كتبه هيجل ، فهو لا يعود - مطلقاً - إلى شرح المنهج بعد أن استوفى تحليله فى المنطق . يقول فى مقدمة كتابه « فلسفة الحق » : « . . . المنهج هو تطور الفكرة الشاملة تطوراً ذاتياً ولقد عرضته فى المنطق ، وأنا هنا أفترضه . » (١)

« وتطور الفكرة الشاملة هو تقدم باطنى خالص وإظهار لتحديداتها (أى المقولات) ولا يتأثر سيرها بوجود ألوان مختلفة من الأشياء المادية يمكن أن تنطبق عليها . . » (٢).

وفلسفة التاريخ تأخذ هى الأخرى بهذا المنهج نفسه بقول هنرى أيكين : « لا نستطيع - لسوء الطالع - أن نفهم نظرية التطور التاريخى فهماً كاملاً دون الإشارة إلى منهجه الجدلى الشهير أو منطقته . . . » (٣) ويقول ه . وولش : « لقد فسر هيجل سير التاريخ كتقدم ديبالكتيكى ، ولفهم الديالكتيك علينا الرجوع إلى أكثر الأمور الفلسفية تجريداً أى إلى المنطق » (٤)

وواضح أن السبب - كما يقول كرونر - هو أن « الطبيعة العقلية والطبيعة التاريخية (عند هيجل) عبارة عن جوهر واحد » (٥) . ولهذا فإن دراسة التاريخ لابد أن تسير مترسمة خطى المنهج الذى يعبر عن طبيعة العقل وهو المنهج الجدلى « ولا يمكن أن ينظر إلى أى عرض أو شرح ، على أنه عرض وشرح علمى ، ما لم يترسم خطى هذا المنهج ويتفق مع إيقاعه » . (٦) ويقول « فوستر » : « . . . إن نظرية هيجل فى القانون وفى الحرية تعتمد أساساً على نظريته الميتافيزيقية إلى المنهج الجدلى » . (٧)

ويقول كولنجوود : « المنطق هو مفتاح التاريخ بمعنى أن تفكير البشر وأعمالهم بالصورة التى يدرسها التاريخ ، تتبع صورة معينة . هى نموذج ملون من تلك الصورة التى كان قد خططها المنطق . . » (٨) .

Hegel : "The Philosophy of Right". p. 34 Eng. Tran. by Knox. (١)

Hegel : Ibid. (٢)

H. Aiken : "The Age of Ideology" p. 73. (٣)

(٤) و . ه . وولش - نفس المرجع فى نفس الصفحة .

R. Kroner : Hegel's Philosophical Development : in Early Theological Writings — p. 40 (Chicago 1946). (٥)

Hegel : Greater Logic Vol. I. p. 65 — Trad. Fran. Tom. I. p. 41. (٦)

M.B. Foster : "The Political Philosophies of Plato and Hegel" p. 138. (٧)

(٨) ر . ج . كولنجوود « فكرة التاريخ » ترجمة الأستاذ محمد بكير خليل ص ٢٧٧ .

وتاريخ الفلسفة يسير هو الآخر وفقاً لتطور المنطق « فهو عبارة عن تقدم تدفعه الضرورة الداخلية . . أو هو تاريخ محدد تحديداً مطلقاً على أنه تطور الأفكار والقوة الدافعة لهذا التطور هي الجدل الداخلي للأفكار . . »^(١) . بل إن العلاقة بين المذاهب الفلسفية تشبه العلاقة الموجودة بين المقولات « وعلى مؤرخ الفلسفة أن يوضح بطريقة أكثر دقة مدى اتفاق هذا التطور التاريخي للفلسفة أو اختلافه مع السير الجدلي للفكرة المنطقية الخالصة »^(٢) . ومن هنا فإن الفيلسوف حين يستخدم المنهج الجدلي فإنه لا يفعل سوى تقليد التطور الذاتي للعقل المطلق : أو قل بدقة أكثر إن موقفه في هذه الحالة أشبه بموقف الملاحظ الذي يراقب النشاط الموضوعي للفكر الخالص ، ومن هنا كان لابد من حذف التفكير الذاتي وما فيه من أهواء فردية ، إن الضرورة المنطقية هي وحدها التي يسترجعها الفيلسوف بفكره^(٣) .

١٣ - لكن إذا كان هيجل يطبق المنهج الجدلي على جوانب فلسفته كلها ، فيجب ألا يغيب عن ذهننا « أن الموطن الأصلي للديالكتيك هو المنطق . . . »^(٤) والمنطق هو دراسة للحياة الباطنية للعقل فإذا كان الجدل « هو في جوهره المنهج الذي يقوم على الحوار . . . » كما يقول جوبلو . . .^(٥) . فإننا نستطيع أن نقول - مع كرونر - « إن المنهج الجدلي عند هيجل هو حوار العقل مع نفسه »^(٦) . أو هو مناقشة الروح لنفسها كما يقول ميور^(٧) . فالفكر يعني الحوار سواء أكان هذا الحوار حوار المفكر مع نفسه أو مع شخص آخر^(٨) . ولذا فالمنهج الجدلي عند هيجل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة العقل أو الروح ، بحيث يمكن أن يقال إننا لن

Hegel : "The Philos. Of History" Vol. I. p. 30 n. by Haldane. (١)

Hegel : Enc. [86] Z. Greater Logic Vol. I. p. 214. (٢)

O. Pfliederer : Op. cit. p. 69. (٣)

(٤) و . ه . وولش : المرجع السابق ص ١٩٠ .

E. Goblot : "Le Vocabulaire Philosophique" p. 177. (Paris 1908) (٥)

R. Kroner : Op. Cit. p. 32. (٦)

G.R. Mure : "An Introduction to Hegel" p. 118. (٧)

J. Hyppolite : "Logique et Existence : Essai sur la Logique de Hegel" p. 8. (٨)

نستطيع أن نفهم ما يعنيه هيجل بهذا المنهج دون أن نفهم ما يعنيه بهذه الفكرة^(١). ومن هنا فقد انصب الفصل الأول من الباب الثاني في بحثنا هذا على دراسة العقل في محاولة لفهم الجوانب المختلفة التي يتألف منها ، لنتهي منه إلى أن العقل له ألوان مختلفة من النشاط تتمثل في الإحساس ، والإدراك الحسي . . . إلخ . ولكن هذه الألوان كلها يمكن أن تعتبر نشاطاً خارجياً للعقل ، أما النشاط العقلي الخالص أو النشاط الذاتي للعقل أو عالمه الخاص فهو : المقولات ، وهي موضوع الفصل الثاني . وهذان الفصلان يؤلفان الباب الثاني الذي يعرض علينا شعاب الطريق . ثم يشرح الباب الثالث - في ثلاثة فصول - طريق الجدل الذي يبدأ بالوجود الخالص وينتهي بالفكرة المطلقة . أما الباب الرابع والأخير : فهو خاتمة نعرض فيها لبعض نتائج هذا المنهج ولبعض ألوان النقد التي يمكن أن توجه إليه .